الجوع

﴿ من رواية للكاتب النرويجي كنوت هامسون ﴾

* * * *

... في ذات ليلة عدت الى التطواف عَلَى غير هدى في شوارع المدينة

أتيت المقبرة وجلست هنالك زمناً أحبر مقالة لاحدى الجرائد ، وبينما كنت منهمكاً بذلك هبط المساء وادلهم الليل وأزفت الساعة العاشرة وحان وقت اغلاق باب المقبرة . وكنت جائعاً جوعاً شديداً . وقد نفدت الدراهم العشرة ، ويا للاسف ، وهي آخر ما كان معي من المال . ومضى عليّ يومان ، بل ما يقارب الثلاثة ايام وانا لم اذق طعاماً . فشعرت بضعف وأحسست بنصب ناجم عن كتابتي عَلَى الورق بالقلم الرصاصي . ولم يكن لديّ من المقتنيات الا قطعة موسى مكسور نصفها وعروة فيها مفاتيح ، وما سوى ذلك لا بارة .

كان عليّ بعد ان أغلقت المقبرة ابوابها ان اذهب الى المبيت . ولكن غرفتي — وهي في الاصل معمل علب قصدير قديم هجره ارباب فاذنوا لي ان انام فيها — كانت تسبب لي روعاً غريزياً مبهماً بظلامها وفراغها . فهمت عَلَى وجهي الى حيث تقودني قدماي ، فمررت بدار الحكومة ثم وصلت الى الشاطىء فوجدت مقعداً عَلَى جسر السكة الحديدية فجلست عليه

لم يخطر ببالي حينذاك حزن ولا أسف . نسيت فاقتي وشعرت براحة

لدى رويتي البحر المنبسط امامي في غباشير الليل جميلاً هادئاً · وخطر لي ، اتباعاً لعادتي ، أن اسلي نفسي واتلذذ بقراءة المقالة التي كتبتها منذ هنيهة ، وهي ، عَلَى ما خيل لدماغي المريض ، من افضل ما أنتجته قريحتي فأخرجت الاوراق من جيبي وامسكتها مدنياً اياها ما استطعت من عيني لكي استطيع ان أميز ما فيها وتلوت الصفحة بعد الاخرى · واخيراً اضنكني هذا العمل فاعدت الاوراق الى جيبي · وكانت السكينة قد سادت في كل مكان ، ووجه البحر المطمئن يحاكي صفيحة من الصدف اللؤلؤي الازرق ، والطيور الصغيرة تتطاير حولي متنقلة من محل الى آخر ، والشرطي صاحب النوبة في الحراسة يتمشى ذهاباً واياباً عَلَى بعدٍ قليل · ولم يكن هنالك من بشر سواه ، وقد عمَّ السكون كل مكان في المرفأ ·

أعدت حسبان مقتنياتي للمرة الثانية فوجدتها كما هي — قطعة موسى صغيرة وحزمة مفاتيح ولا شيء من المال · وبينا أجس ما في جيوبي اذا بي اعثر عَلَى الاوراق التي وضعتها فيها فاخرجتها غير منتبه لما افعله وانتقيت منها ورقة لا كتابة عليها · وخطر لي أمر ، ولا ادري من اين تطرق الى دماغي فطويت الورقة وعملت منها صرّة يبان للناظر اليها ان فيها شيئاً ، ورميت بها الى الرصيف عَلَى مقربة مني ، فقذفتها الريح أبعد قليلاً فظلت ثابتة في مكانها ·

وفي اثناء ذلك أخذ الجوع يذكرني بنفسه غير مشفق · فطفقت ارمق الصرّة البيضاء الفارغة التي تراءت كأنها مملوءة نقوداً فضية · وحاولت

ان اقنع نفسي انها تنطوي في الحقيقة عَلَى مال ، وحثثت نفسي لتحزر مقدار ما في الصرة من المال حتى اذا اصابت كبد الحقيقة بحزرها كانت الصرة حلالاً لها بما فيها . وخيل لي ان فيها دراهم صغيرة جميلة فضية تعلوها دنانير كبيرة وهاجة . فلبثت ارمقها بعينين تلمعان بنار الطمع وسوّلت لي النفس أن اذهب واسرقها .

واذا بي اسمع فجأة سعال الشرطي ، فخطر لي — ولا ادري لماذا — ان اسعل مثله . فنهضت عن مقعدي وسعلت مكرراً ذلك ثلاثاً لاستلفت انظار الشرطي اليّ . هو ، ولا شك ، سيهجم عَلَى الصرّة حين يأتي نحوي . وجلست مبتهجاً معجباً بحدة ذهني وحسن فكرتي . واخذت لشدة ابتهاجي افرك يداً بيد واقذف الشتائم العنيفة موجهاً اياها نحوه في سري . . . مهلاً ، فسيرى هذا الكلب كيف اسخر منه . سيسقط في يده حين يفطن للحيلة ، لعنة الله عليه . — لا شك اني سكرت من الجوع .

بعد مضي دقيقتين حدث ما كنت اتوقعه واقترب الشرطي يخبط الرصيف بكعبي حذائه المثقل بالحديد متفرساً في الجهات بانتباه . لا يستعجل ، ولمَ يعجل والليل بطوله أمامه ؟ لم يلحظ الصرة حتى صار عَلَى قيد خطوة منها فوقف وتأملها ملياً . اما الصرة فكان منظرها يغري بانها ذات قيمة . اذن من الممكن ان يكون ضمنها دراهم ؟ أو ربما دنانير ؟ رفعها الشرطي ، واذا بها خفيفة ، فقال في نفسه — لعلّ فيها ريشة ثمينة لتزيين القبعات . . . فتحها باصابعه الثخينة متحرساً ونظر الى داخلها . أما انا فامعنت في التهتهة وطفقت

اضرب ركبتي بيدي . قهقهت كالمعتوه ، ولكن لم يخرج من فمي صوت البتة . فكان ضحكي هادئاً ، مريضاً يشبه العويل ...

وسمعت للمرة الثانية خبط رجلي الشرطي على الرصيف ورأيته يعطف نحو الجسر . وكنت جالساً وعيناي مملوءتان دمعاً وبالكد اتنفس واوشك ان اغيب عن الصواب لما انتابني من الطرب العصبي . اخذت اخاطب نفسي بصوت عالٍ واقص على نفسي حديث الصرة مقلداً حركات الشرطي ، ساخراً بها ، وانظر الى كفي الفارغة مكرراً بلا انقطاع هذه الكلمات — « قد سعل عندما رماها . قد سعل عندما رماها ! » ثم أضفت اليها كلمات قارصات سواها وقلبت العبارة اشكالاً وألواناً ، واخيراً صرت اردد ها هكذا — « قد سعل مرة واحدة — قح — قح ! »

أفضت في تنويع عبارات اركبها من هذه الكلمات ورددتها مكيفاً حسبما شاءت مخيلتي . ولم تنقطع نوبة طربي حتى بلغت الساعة وقتاً متأخراً من الليل . ثم استولت علي سكينة خائرة ، وشعرت بتخدر لذيذ يساورني فلم ادافعه . تكاثفت الظلمة ، وجمد النسيم وجه البحر ، وبرزت رسوم سواري المراكب متجسمة في الجو ، وخيل لي ان اصولها جبابرة مريعة ، صامتة ، قد ربضت على وجه الماء تحرسني . لم أعد اشعر بضيق ، لان الجوع اطفأ كل ألم ، ولكني شعرت عوض ذلك بفراغ لذيذ في داخلي . صرت مستقلاً كل الاستقلال عن كل ما أحاط بي ، وابتهجت في نفسي لانه لم يكن حولي من يراني . وضعت رجلي على المقعد واستلقيت الى خلف لاتمكن

من التلذذ بوحدتي اكثر من قبل ، فاسيت في حالة لا يعكر جوها الغيوم ولا يخالج شعوري كدر ، خلواً من كل المشتهيات والرغائب . اضطجعت وعيناي مفتوحتان في حالة قريبة من التناسي وقد غاب عني قصياً ما يقال له « انا » فلذ لي ادراك ذلك .

سادت سكينة تامة عَلَى الافاق فلم يزعجني صوت . وقتّع الظلام اللطيف امام عيني العالم باسره فغرقت في بحبوحة من الراحة . ولم اسمع سوى ضجيج السكينة الفارغ المشرف عَلَى الموت يطن في اذني بلا انقطاع . وكأني بالجبابرة الهائلة تمد يديها حين يجن الليل وتجذبني اليها وتذهب بي بعيداً ما وراء البحار ، الى اقطار غريبة لا يعيش فيها الناس ، وتحملني الى قصر الاميرة ابنة الملك . هنالك أعدّ لي من مظاهر الابهة والجلال ما لم يُسمع بمثله ولم يظفر به احد من البشر . اما الاميرة فتجلس عَلَى عرش من الورود الصفراء في بهو يدهش البصر ، كل محتوياته من الاسمانجوني الكريم . فتمد يدها نحوي حين أدخل وتنطق بكلمات التأهيل ، فاقترب منها واجثو عَلَى ركبتي فترحب بي قائلة « اهلاً وسهلاً بك ، ايها الفارس ، لقد شرفتني وشرّفت بلادي . كنت بانتظارك عشرين ربيعاً . كنت ادعوك كل ليلة زاهرة ، وكنت ابكي عندما كنتَ تحزن ، وطالما بعثت اليك نسيم الاحلام السعيدة وانت نائم ... » ثم تأخذ الحسناء بيدي وتقودني فنجتاز اروقة طويلة قد وقف فيها جماهير الناس يهتفون لها بالدعاء . ثم تسير بي في رياض زاهرة تمرح فيها مئات من الفتيات الحسان لاعبات ، ضاحكات ، حتى تصل

بي الى قاعة كل ما فيها مصنوع من حجارة الزمرد البراقة النفيسة ، والشمس تغمرها باشعتها ، والموسيقى تصدح في جنباتها بانغامها الساحرة ، والهواء ما حولنا مشبع بالطيوب · فامس يدها بيدي فاشعر بسعادة محرقة · اشعر ان ناراً سحرية سرت في عروقي · فاطوق خصرها بيدي فتهمس في اذني « ليس هنا · سر بنا ·» فندخل قاعة وردية كل ما فيها من العقيق تسود في جوانبها ابهة تسلب الرشد ، فأخرّ ساقطاً عَلَى الارض ، واول ما اشعر به فجأة ان يديها تطوقان جسمي ، وانفاسها تغشي وجهي · واسمعها تهمس في اذني قائلة « اهلاً وسهلاً بك ، يا حبيبي ! قبلني ! قبلني ايضاً ! ···· ايضـاً ···· »

نظرتُ من مقعدي فاذا بالنجوم تتألق امام عينيّ وتحتملني الى عاصفة الانوار ···

نمتُ عَلَى المقعد فايقظني الشرطي فعدت قسراً الى الحياة وآلامها ···